حكايات عربية
في الأيكة الإسبانية
للمتشور دي سانتاكروث

Cuentos Arabes en la
"Floresta espanola"
De Melchor de Santa Cruz
Al-Andalus
Vol : XXXV 1970
Fasc . 2

obeikandl.com

obeikandl.com

حكايات عربية في الأيكة الإسبانية
لملتشور دي سانتاكروث

تحدثت في مقالات سابقة عن حكايات في الأدب العربي، موجودة أيضًا في الأدب الإسباني، من بينها حكايات جمعها ملتشور دي سانتاكروث دي دوينياس في كتابة الممتع «الأيكة الإسبانية».

قام بدراسة مهمة، لم تفقد أهميتها حتى الآن، لهذا الكتاب دون مارثيلينو مينندث بيلايو في كتابه أصول القصة. أما المناسبة التي أفرغ فيها كل جهده بعمق فقد كانت لدى نشر سلسلة مجموعة المولعين بالكتب الإسبانية، إذ نشرت الأيكة نشرة جيدة بعناية: بينيتيث كلاروس الذي لم يتدخل في تخطيط الناشر الذي حدد جهده في التركيز على الأهمية الكبرى لدراسة المصادر، والسبل لكل قول من الأقوال المأثورة، والصعوبات لتحقيق تلك المسألة.

لقد جمع الأستاذ المتكاسل البيانات الأولية حول السبيل المعروفة للحكايات التي درست، معطيا في بعض المناسبات بيانات بيليوجرافية موجزة، مستقاة في بعض الأحيان من قراءة الحكايات مباشرة. ولا يصل عدد الحكايات المعزوة لأصلها في شيء من الدقة إلى الأربع والعشرين مما يبين لنا بوضوح - أمام مئات الحكايات التي تؤلف الكتاب - أن العمل المهم لم يزل في بدايته.

القائمة الموجزة للحكايات التي في الأيكة ذات الأصل العربي - والتي نتوقع لها ذلك الأصل دون الأصول الأخرى - وقد عرّفت بها من قبل «التينات الثلاث،

إذن يبكون ، إلى أين نرحل» أضيف اليوم مجموعة أخرى أدرسها حسب ورودها في الكتاب ، منها ثلاث ، نسبتها لا يحوم حولها شك أبدا ؛ هي مثل حكايات أخرى سبق أن درستها ، وهي في الواقع ترجمة مباشرة ، أو بتعبير آخر نسخة طبق الأصل من حكايات عربية ، أما عن الحكايتين الأخريين ، فالأولى والرابعة دار حولها جدل كثير ، إذن أدع الطريق مفتوحا لمن يدلي بدلوه ، وبمعلومات أوسع ، في ذرعه أن يصحح ما قلت .

ما زال في الأيكة حكايات عربية أكثر ، أتذكر أنني قرأتها منذ سنوات خلت في كتب ليست في متناول يدي الآن ، وتطل برأسها ذات يوم بطريق المصادفة في قراءات جديدة أو في قراءة معادة ، الطريق ليس سهلا ، ويقتضي وقتا طويلا ليس مهيئاً لدي الآن ، ولست قانطا من متابعة البحث ، والعثور عليها .

بين يدي حكاية أخرى ، وهي ذات أهمية قصوى بالنسبة لي ، لكنها مدججة بالمشكلات ؛ لأنها – بالرغم من تاريخها الطويل في الأدب الإسباني قبل الأيكة وبعدها – موجودة في آداب أوربية أخرى ، كلاسيكية وحديثة ، وهي أيضًا موجودة في الأدب العربي منذ أمد سحيق . ولدراسة هذه الحكاية سأخصص قريبا مقالا جديدا .

لنلج الآن الحقل الوارف والمبهج بحق : حقل الأيكة الإسبانية :

حساب الجائع :

يضم الجزء الرابع من الأيكة ، وفي الفصل الثامن «عن الطلاب» نكتة تحمل رقم 8 ، أقصر ما تضم المجموعة كلها :

سأل عريف تلميذا : كم عدد بنات عمك ، أجابه باللاتينية : أربع صحاف ، كل واحدة ذات مذاق لذيذ .

ليس بين الحكايات التي أدسها في هذا المقال ما في هذا المضمون من لوذعية شديدة ، ولا يبدو إمكان إبداعه خارج الحقبة التي جمعه فيها ملتشور دي سانتاكروث . ودون زعم أي شيء آخر من جانبي سأقدم فيما يلي نكات عربية عديدة ، متشابهة في وجازتها وفي مقصدها ، في الذرع أن تكون أصلا لتلك النكتة .

بعضها في كتاب الأذكياء لأبي الفرج بن الجوزي ، ذي التصانيف العديدة ، المولود في بغداد سنة 510 / 1116 ، وتوفي في المدينة ذاتها سنة 597 / 1200 . لنر الأولى :

قال الجاحظ : قلت لأبي سعد الطفيلي : كم أربعة في أربعة ؟ قال : رغيفين ، وقطعة لحم .

وعلى التوالي نجد نكتة أخرى على المنوال ذاته .

وقال المبرد : قيل لطفيلي : كم اثنين في اثنين ؟ فقال أربعة أرغفة .

تقفو هذه النكتة نكتة أخرى بها تغيير طفيف عن سابقتها :

قال أبو هفان : قيل لطفيلي : كم أربعة في أربعة ؟ قال : ستة عشر رغيفا .

كما هو بين ، فإن النكتة قد ذاعت – الأمر الواضح جدا داخل الإطار الاجتماعي – وإن ابن الجوزي لم يصنع شيئا سوى جمعه ثلاث روايات للنكتة ذاتها ، فالطفيلي الذي عضه الجوع يستخدم كل صنوف الحيل كي يسد جوعه ، حيلة جيدة تمنحه دائما نتيجة طيبة : إنها جملة ذكية .

إذا صدقنا ابن الجوزي ، فإن الروايات منسوبة إلى شخصيات في قامة الجاحظ أديب البصرة الكبير (160 / 776 – 225 / 868) صاحب المؤلفات الأدبية العديدة ، وفي قامة المبرد أحد كبار النحاة في مدرسة البصرة (210 / 825 – 285 / 898) وفي قامة أبي هفان المحزمي صاحب الكتاب المعروف «أخبار أبي نواس» وهو أيضًا

مشرقي ، (توفي في تاريخ غير محدد ، يدور – كما يقول المؤرخون حول عام 190 / 809 ، 257 ، 810 / 870) .

وعلى أية حال ، فبعض النكات من النمط ذاته كانت معروفة في المغرب الإسلامي ، على الأقل قبل قرنين من موت ابن الجوزي ، فالحصري القيرواني في كتابه الجواهر الذي أشرت إليه أكثر من مرة في مقالات سابقة ، وتوفي سنة 1022 ، ضم النكتة التالية منسوبة إلى أشعب :

وقيل لأشعب : كم كان أصحاب النبي ﷺ يوم بدر ، قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر رطلا .

لا يحدد أي نوع من الأرطال ARRELDE «الرطل» لكن من الواضح أنه يعني شيئا مأكولا ومن المظنون أن الرواية الأولية توضح نوع الطعام ، والذي حذف عند تقييد الرواية لتخفيف الصورة غير اللائقة للنكتة في عيون المسلمين .

وبعد تلك النكتة يذكر الحصري أيضًا نكتة من كتاب الأذكياء لابن الجوزي ، وقد ذكرناها آنفا ، هي الحكاية المنسوبة إلى المبرد (2 × 2 = 4 أرغفة) ، وإن كان الحصري لم يذكر لغوى البصرة المشهور . وبالمناسبة فمن المعلوم أنها مثل النكتة السابقة ، يحكيها هكذا : «تلك [النكتة التي فرغت توا من حكايتها] مثل حكاية الطفيلي الذي سألوه [وهذا كما قيل لطفيلي] كم اثنين في اثنين ، فأجابهم : أربعة أرغفة .

في كل هذه النكات العربية ، يخرج المسئول – فيما يتضح – عن الموضوع في إجابته، لعله يريد أن يقدم لنا العقدة لفهم ظروفه البائسة باعتباره طفيليًّا جائعا ، وفي حكاية الأيكة يحدث شيء مماثل : ففيها البطل طالب جائع أيضًا ، وأيضًا صعلوك (كما هو الطفيلي في حقيقته) وتأتي إجابته مشابهة «هي هي» ، لا يعني

مسائل الحساب (في موقفه) المطروحة ، بل إنها سؤال (بلا شك في الامتحان) منطقي ، أجيب عليه (إلى حد كبير بالمنطقية الممكنة) لأن البائس محاصر بالأزمة الفظيعة لمقاومة الجوع الذي يعضه ، ذلك العدو الذي لا يقاوم لكل معاصريه تقريبا، وهو تلك الشخصية التي تلعب دائما دورا مهما في كل قصص الصعاليك .

يبدو لي أن حكاية سانتاكروث تحمل في إتقان كل خصائص العصر الذهبي ، في كل الحكايات العربية التي جرى الحديث عنها .

كيف مات أبوك ؟

في الفصل الثامن من القسم السابع الذي عنوانه «حديث المائدة» يقص علينا سانتاكروث تلك الحكاية (رقم 5) :

جلس صاحبان يأكلان ديكا مشويا ، سأل أحدهما صاحبه : ماذا حدث لأبيك؟ فأخذ الآخر يقص في تؤدة كيف مات ، وسبب موته ، وفي أي مكان ، وكل الملابسات التي صاحبت موته ، وبينما يقص صاحبنا كيف مات أبوه ، أكل صاحبه معظم الديك الذي كان قد شرع في التهامه ، فسأله صاحبنا : وأنت كيف مات أبوك؟ فإنني قد قصصت عليك حكاية موت أبي ، فأجابه صاحبه : مات بغتة .

في جمع الجواهر للحصري الذي ذكرته آنفا ، عثرت على حكاية مشابهة ، أعطاه الناشر عنوان «يشغله عن الأكل» تقول ما يلي :

قعد عبادي وأعرابي يأكلان ، فقال العبادي للأعرابي : كيف مات أبوك ، ليشغله بالكلام عن الأكل ، فقال : أصابه كذا وكذا ، فأخذ في حديث طويل ، والعبادي يأكل ، ثم قال الأعرابي : وأنت كيف مات أبوك ليشغله بالكلام عن الأكل! ، قال : أتخم ، فمات .

يبدو لي واضحا أن النكتة هي ذاتها ، وإن كان ثمة تغيير طفيف في الفحوى ، وعند تصحيح التجارب عثرت على مذكرة كانت شاردة عني ، وتشير إلى «ألف حكاية وحكاية» لباسيه ، الذي ترجم هذه الحكاية ، ليس بطريق مباشر من جمع الجواهر ، بل من القواعد الأولية للغة العربية لدوراند ، وشيخو .

الأعور الذي أصابه العمى :

القسم الثامن من الأيكة مخصص لحكايات أبطالها مشوهون خلقيا ، والفصل الأول بعنوان «عن العميان» الذي اتسع للعور والحول ، يضم الحكاية التالية (رقم 5):

طعن رجل برتغالي أعور بنشابة ، فأصابت عينه الصحيحة ، وحين عمى ، قال لبعض الفرسان الذين معه : مسيتم بالخير ، يا صحاب .

تعبير «مسيتم بالخير» شرحه المايسترو جونثالو كورياس في الجمل التي يحويها كتابة القيم «المعجم» بهذه الصورة :

مسيتم بالخير :

يقال حين ينطفئ النور ، أو الشمعة ، وحين يعم الظلام ، وحين يودع صاحب صاحبه في المساء ، أو حين [يفقد أحدهم نور عينيه] أو حين يخسر صفقة ، فيقال : مسيتم بالخير .

لقد وضعت قوسا على جملة «يفقد نور عينيه» وهي الحالة المأسوية للبرتغالي ، لدى سانتاكروث ، التي عبر عنها متحديا ، وأمسى بالخير صيغة خطرت لهذا المبتلى ، ودون أن يفقد حماسته .

لا أعرف لهذه الحكاية روايات إسبانية أخرى في الحقبة ، بيد أني عثرت عليها في القرن الثامن عشر في «الأيكة الإسبانية» الأخرى لفرانسسكو أسنيسيو ، الذي وضع لمسات كثيرة للفحوى ، وكما هو منطقي ، فإنه أخذها من ملتشور دي سانتاكروث .

في القسم الخامس في القسم الثالث ، الحكاية الأولى من الفصل السابع بعنوان «عن اللعب» تقول ما يلي :

كان رجل أعور يلعب بالكرة ، فرموا الكرة ، فأصابت عينه الصحيحة ، وحين عمى ، قال لأصحابه اللاعبين معه : مسيتم بالخير يا صحاب .

استطعت العثور على روايات عربية متعددة لهذه الحكاية جمعتها من مصنفات أدبية من حقبة باكرة إلى حد ما ، أقدم هذه الروايات لكاتب إسباني ، هو على وجه التحديد الشاعر المعروف ابن عبد ربه (توفي سنة 328 / 940) شاعر خليفتنا الأول . يقص الحكاية في كتابه العقد بهذه الصورة :

أبو حاتم قال : رمى رجل أعور بنشابة ، فأصابت عينه الصحيحة ، فقال : أمسينا ، وأمسى الملك لله .

لتنوقف قليلا عند الجملة التي تحتها خط ، ولندرسها قليلا (فقط لغير المستعربين من القراء ، لأن الجملة بسيطة جدا) .

يستعمل المبتلى في إجابته مرتين الصيغة الرابعة للفعل «مسى» ، في الحالة الأولى أمسينا ، وفي الحالة الثانية أمسى وهو من أخوات كان ، وفي الترجمة لا نجد الجناس (اللعب بالكلمات) الذي في الأصل : أمسينا ، وأمسى الملك لله . في الجملة الأولى المعنى نفسه مقابل لها في الأيكة ، وتتفق تماما مع شرح كورياس ، والثانية تعبر عن الصبر ، والتسليم المطلق للمسلم الصالح لإرادة الله في كل ما أراد . في رواية مشرقية متأخرة سأذكرها فيما بعد ، تتحول هذه الجملة إلى «والحمد لله» التي تقال في كل الأحوال ، وفي المكاره بصفة خاصة ، وهي جملة يصاحبها في أي الحالات التعبير على كل حال التي توضح الموقف تماما ، أو حماسة من يستخدمها .

الحكاية موجودة كذلك في الأدب العربي المشرقي . في كتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (المتوفى في بدايات القرن السادس / السابع) تُحكى بهذه الصورة :

وأصاب حجر عين أعور الصحيحة ، فوضع يده عليها ، وقال : أمسينا ، وأمسى الملك لله .

تُشتق من رواية محاضرات الأدباء – على وجه الاحتمال – حكاية في كتاب الكشكول، لبهاء الدين العاملي (953 / 1547 – 1030 / 1624) تقول :

ضرب رجل أعور بحجر ، فأصاب العين الصحيحة ، فوضع الأعور يده على عينه، وقال : أمسينا ، والحمد لله .

هذه الرواية مع تكرارها غير الضروري لعدة كلمات بها تغيير مهم هو جملة والحمد لله بدلا من «وأمسى الملك لله ، فالمبتلى هنا أذعن لقدره ، حامدا لله ، على كل حال ، كما هو الطبيعي من مسلم صالح ، بيد أن اللعب بالكلمات (الجناس) يختفي هنا ، وتفقد النكتة جزءا صالحا من ملاحتها .

ثمة رواية طبق الأصل لرواية كتاب العقد المذكورة في بداية الكلام ، في كتاب حدائق الأزاهر لابن عاصم الغرناطي (توفى سنة 1426) مع تغيير وحيد في البداية : وقال أبو حاتم بدلا من أبو حاتم قال . والجملة الأخيرة مرجوحة تبعا لقواعد النحو العربي .

كما هو بيّن . الموضوع حكاية تقليدية مأثورة سواء في الأدب العربي أو الإسباني ، يقول لي صديقي وزميلي فرانسسكو يوندراين : إنه في السنوات العشرين من هذا القرن كانت هذه النكتة تجري على ألسنة الناس في تخوم منطقة نابارّا . في تلك الرواية : لاعب الكرة يقذف بالكرة عينا صحيحة لمشاهد أعور ، يتحسر قائلا : مسيتم بالخير .

لقد كان أكثر بكورا من فقدها :

الحكاية التي نراها الآن حكاية تقليدية بلا ريب ، ما زالت حية بين الناس ، وهي في القسم العاشر بعنوان «أقوال غريبة» تقول ما يلي :

والد غاضب ولده ؛ لأنه لا يصحو في الصباح ، فقال له متمثلا : إن أحدهم صحا في الصباح فعثر على بدرة مليئة بالنقود ، فما كان من الولد إلا أن أجابه قائلا : لقد كان أكثر بكورا من فقدها .

نقل فرانسسكو أسسنيو الذي تابع الأيكة في القرن الثامن عشر الحكاية في القسم الثامن من الجزء الثاني في الفصل الرابع بعنوان «عن الأولاد» في صيغة مشابهة تماما لصيغة سانتاكروث ، حشا البداية إذ أتى بالفعل «غاضب» قبل الفاعل «والد» .

أثناء قراءتي لفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ، مترجم «ثامرلان» المتوفي في منتصف القرن الخامس عشر (وبالتحديد في سنة 1450) وهو كتاب يشاكل «سراج الملوك» ، في صورة أمثال تقليدا لأعمال فارسية من النوع ذاته ، وهو كتاب ذو أهمية ضخمة ، وخليق أن يترجم كله ، (وهو عمل ربما وجد من يتصدى له يوما ما) .

في هذا الكتاب عثرت على حكاية بها مشابه كبيرة من الحكاية الإسبانية ، إنها نص طويل مسجوع ، كالكتاب كله ، حكاية كحايات أخرى مماثلة ، داخل إطار الكتاب ، وبها قصد مماثل لألف ليلة وليلة ، أو بتعبير أدق لكليلة ودمنة .

وبما أن الحكاية متعبة ، وإن كانت غير صعبة ، ومن المناسب الحفاظ على المستوى ، فقد اخترت بعد ترجمتي لها كاملة أن أختصرها بعض اختصار ، محافظا في معظم الأحوال على شكل الحكاية حرفيا ، حينما يكون ذلك مهما بالنسبة لموضوعنا ، أما الحوار فقد وضعته بين قوسين ، لنر ما يقول :

بلغنا أن بزرجمهر الوزير كان ذا علم غزير ، ورأي وتدبير ، وبديهة جواب ، تفحم الكد والتفكير ، وكان حكيم زمانه ، وعليم أوانه ، وممن فاق في الفضل والحكم سائر أترابه وأقرانه ، وكان مقربا عند مخدومه يزيد في كل وقت في تكريمه وتعظيمه ، وتوقيره وتفخيمه ، ويصغى إلى نصائحه ، ويعد قربه من أعظم مناجحه ، ويصبر على كلامه

الصادع ووعظه القارع ، ونصحه الفادع ، لما فيه من الفوائد والمنافع ، والحكم والبدائع، وقد قيل من أحبك نهاك ، ومن أبغضك أغواك ، فكان الوزير يبادر قبل سائر الخدم في وظائف الخدم ويعجل من الليل والظلم ، حتى كأنه يوافق النجم ، أو يسابقه في الرجم، ومع ذلك كل يوم يجد مخدومه راقدا في النوم ، فيقرعه بالغفلة ، وينقم عليه هذه الفعلة ، ويعلن بالندا ، وينادي في الملا ، فيقول أفق يا محجوب ، ويتيقظ حتى تظفر بالمطلوب ، فمن باكر نجح ، ومن غلس المطلوب أفلح ، ومن تخلف في النوم سبقه إلى المنزل القوم ، وفاته المطلوب ، ولا يدرك المحبوب ، واترك لذة الكرى ، فعند الصباح يحمد القوم السرى ، وكان كسرى يجد لهذا الكلام أنواعا من الآلام ؛ لأنه كان يطيل السهر إلى وقت السحر ، عاكفا على المدام ، وسماع الأنغام ، ومغازلة الغزلان ومعاقرة الندمان ، وإحياء الليل عمر ثان ، فإذا نام واستراح ، امتد نومه إلى الصباح ، فلا يوقظه إلا عياط الوزير ، وصراخ ذلك الصائح النذير ، فلما طال عليه المطال ، وغلب عليه من ذلك الملال ، أرصد للوزير في الطريق ، من منعه عن التبكير بالتعويق ، فتصدى له الرصد ، وأعروا رأسه والجسد ، وأخذوا قماشه ، وسلبوا رياشه ، فرجع إلى بيته مكرها، ولبس ثيابا غيرها ، فأبطأ في ذلك اليوم ، وتخلف في الخدمة عن القوم ، ولم يجيء إلا وقد استيقظ كسرى من النوم ، وهو جالس في صدر الإيوان ، وحواليه مباشرو الديوان ، وسائر الوزراء والأركان ، وعامة الجند والأعوان ، كل في مقامه ، ضابط زمامه ، فأدى بزرجمهر وظائف الخدمة على عادته ، ووقف في مكانه مع جماعته ، فقال كسرى ما دعا مولانا الوزير ، في هذا اليوم المنير ، إلى التخلف والتأخير ، وترك التبكير ، وإنشاده بالتبكير قول الشاعر الكبير :

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

فقال إن الحرامي عارضني أمامي ، وقصدني في ظلامي ، فأخذ شاش ، وسلبني قماشي ورياشي ، فرجعت إلى كناسي ، وجددت زينتي ولباسي ، فهذا سبب تأخيري ،

وعدم تبكيري ، وموجب تخلفي عن وعظي وتذكيري ، فقال كسرى ما أفادك التذكير، إلا الغرامة في التبكير ، ولولاه ما سلب القماش ، ولا ذهب الرياش ، ولا قام الحرامي بالمعاش ، فأين الفلاح في القيام قبل الصباح ، فقال بزرجمهر في الحال ، وقد أصاب في الجواب ، ليس ذلك كذلك يا إمامي ، وإنما بكر قبلي الحرامي ، ولم أباكر أنا بالنسبة إليه ، فرجع فائدة تبكيره مني عليه ، فعجب كسرى من خطابه ، وسرعة بديهته في جوابه .

إذا اختصرنا تلك الفحوى في خطوطها الأساسية نرى أن ثمة شخصية قررت أن تكون مناصرة للتبكير هي شخصية الوزير ، وشخصية أخرى هي الملك تناهض البكور ، فالوزير لمكانته لدى الملك يناشده التبكير ، موضحا له مناسبته له وفوائده التي تعود عليه منه ، في كل هذا اتفاق تام بين حكاية الأيكة ، بما في ذلك استطاعة الوزير إغضاب الملك ؛ لاهتمامه به كما يهتم بولده .

ومن هنا فإن خطة الحكايتين تتناظران حتى في الحل ، فالذي يحدث هو أن الحيثيات التي يقوم بها واحد وآخر ذات إشارة متناقضة ، ولذا فالنتيجة النهائية مختلفة ، وبكلمات أخرى ، فالكاتب القديم للرواية المشرقية الأولى يدافع عن قضية التبكير ، (وهي من جهة أخرى قضية إسلامية : الصلاة خير من النوم) لكنه يقدم دليلا «مشاهدا» غير ملائم لتحقيق القضية ، والرواية الإسبانية التي تدافع عن قضية مختلفة تبالغ على العكس في فائدة التبكير ، وفي الروايتين تعد مقدما فحوى ما ، مع الرغبة في تحطيمها ، وكما هو الحال في نقطة الانطلاق من تصورين مختلفين ، ففي فاكهة الخلفاء النتيجة إيجابية ينبغي التبكير ، وفي الأيكة سلبية لا ينبغي التبكير .

حسن إذن . أية علاقة يمكن أن تقوم بين حكاية ابن عربشاه المطولة وبين الحكاية الإسبانية ؟ في التصنيف المتأخر لنزهة الأدباء التي ترجم في مخطوطتها رينيه باسيه عددا طيبا من الحكايات حكاية ترتكز إلى أساس بعيد ، إلى القضية ذاتها في حكاية بزرجمهر ، إنها حكاية نصها موجز جدا ، ومشوه أيضًا يقول ما يلي :

يروى أن رجلا مثل يوما بين يدي الحاكم ، طالبا مساعدته ، فاستقدمه ، فلما حضر بين يديه ، سأله : ماذا حدث لك ؟ فأجابه : سمعت حديثا عن النبي ﷺ يقول : طوبى للذين ينهضون في البكور . واليوم صحوت مبكرا ، فقابلني لصوص ، سلبوني ثيابي ، وكل ما معي ، فقال الحاكم : لقد كانوا أكثر منك تبكيرا ، ولذلك حصلوا على ما كان لديك .

من الصعب إقامة علاقة بين هذه الحكاية وحكاية الأيكة ، دون بيانات أخرى بين أيدينا ، لكنها تشير إلى أن حكاية بزرجمهر حظيت بشيوع كبير في الأدب العربي ، حتى في الخاتمة النهائية التي لا تبلى جدتها . من المحتمل أن نعثر في يوم ما على إحدى الروايات الموجزة تحوي الخط الأساسي ، أو تقترب أكثر من الحكاية الإسبانية .

في المكتبة المشرقية لهربيلوت وفي المقال المخصص لبزرجمهر نجد الحكاية ذاتها في صيغة موجزة إلى حد كبير ، دون إشارة إلى المصدر بيد أن المصدر شيء آخر بلا ريب ؛ لأن أنوشروان هنا يعين بزرجمهر مؤدبا لولده هرمز ، وهذا الأمير الشاب في هذه الرواية هو الذي يتلقى تأنيب الوزير ، ويفكر في الوسيلة التي يتقي بها هذا التأنيب .

المرآة :

الحكاية الأكثر شهرة – بلا ريب – من بين كل الحكايات التي درستها في هذا المقال تلك التي في الفصل السابع بعنوان : «عن الشيوخ» في القسم الحادي عشر من الأيكة تحت رقم 10 ، تقول ما يلي :

وجدت عجوز مرآة في مزبلة ، فنظرت فيها ، فرأت وجهها ، أنحت باللوم على المرآة ، فرمتها قائلة : ما كنت في هذا المكان إلا لرداءتك .

لقد ذكر دون مارثيلينو ميننث إي بلايو في كتابه «أصول القصة» أن هذه النادرة أصل الرومانثي المعروف لكيبيدو ، والذي ينتهي بهذه الأبيات :

ينبغي رمي الوجه ،

لا رمي المرآة بلا ذنب .

وللطول المفرط الذي أضفاه كيبيدو على الموضوع ، والذي سخر له خياله المحلق ، سأنقل فقط الأبيات ذات الصلة بحكاية الأيكة ، راجعا إلى الطبعة الجيدة للأعمال الشعرية الكاملة لكيبيدو ، والتي اضطلع بها صديقي العزيز دون خوسيه مانويل بلاكوا :

كانت عجوزا هِمّا ، تجحد ماضي السنين

تمنح الحواشي الكثير ، حيث يصمت ما هو كهل

ويختفي خلف القذال .

إن لم تكن مياه التعميد ، فهي أعمار الإيمان

كانت تبحث في المزابل عن الورق ،

لم ترد الأسمال حيث لا تجرو على القراءة

شرعت في دغدغة هذه الأشياء

فلفت نظرها بصيص ، ويصاب الاهتمام بالرعب

هل هو بصيص لآلىء ، لا . ليس لآلىء

بل إنه إطار مرآة مفقود بسبب فعل الخير

نظرت فيها العجوز الشمطاء ، وهي تمسك بمغزلها

رأت أذنا بأقراط حيث بحثت عن ضيعة (أرانخويث)

محجرين لعيون مجهدة

obeikandi.com

وفي فم الليل سن واحدة

وتجاعيد ثمرة عين الجمل

ضفائر على الأنف واللحية ، حيث الكلام يشبه العض

ألقت بها على الأرض بوجه عبوس :

لقد عرفت جيد ما حدث ، فمن رماك حيث أنت .

سيداتي ، لو أن هذا يهمكن ، فهو جدير بكن

فلنلق الوجه ، ولا مسوغ للمرآة

لقد دفعت المرآة وحدها جريرة بشرتها

عندما أتت ذبالة السنين أدبرت .

من حكاية ملتشور دي سانتاكروث أخذ الحكاية البرتغالي العظيم فرانسسكو رودريجيث لوبو (توفي في سنة 1636) في كتابه La Corte na aldea ، كما يشير : ر . بنيتيث كلاروس في مقدمته لطبعة الأيكة الإسبانية ، ومع ذلك لا تبدو في الورقة V 185 في طبعة لشبونة 1619 المذكورة في القائمة ، بل في الورقة 105 ، 106 ، R . حكاها بندارو إحدى الشخصيات التي لعبت دورا في المشهد الحواري «الحادي عشر» تقول الحكاية ما يلي في البرتغالية :

Hum homem de melhor parecer, & estatura, q entendi. mento, se apattou a viuer algus annos lonjc da cidade em hum monte aonde alem de tratar pouco do culto de sua pessoa, com a ar dos matos, o discurso da idade, & alguas infirmidadades que teuera, estaua do rosto & dans feicoes mui dessemclhado, vindo depois com noua occasiao a viuer a terra donde saira, querendose vestir, & concertar ao galante mandou que lhe comprassem hum espelho, fez o criado diligencia, & nao achou nenbum de quese satisfizesse o amo, tendo prouados muitos, ou quasi

obeikandi.com

todos os que suia, & preguntandolhe porque os engeitaua respodeo porque fazem tam mao rosto, & tam auelhentado que se nao pode hum home de bem ver a elles, & ha poucos annos que os suia nesra terra tan excellene: tes, q me faziao o rosto como de hum amo o Riose o moco dizedo entre sy, mais se desconhece meu amo por iguorante que por mal visto, pois ao espelho poem a culpa q teuerao montes, & aidade.

في جمع الجواهر للحصري الذي ذكرته آنفا ، حكاية هي بلا شك الأصل المحتمل لحكاية سانتاكروث ، تعالج الموضع ذاته ، تتميز أيضًا بالوجازة ، وتحوي الجملة الأخيرة نفسها ، تقول ما يلي :

ومر أعرابي بمرآة ملقاة في مزبلة ، فنظر وجهه فيها ، فإذا هو سمج بغيض ، فرمى بها ، وقال : ما طرحك أهلك من خير .

يجمع الحصري بعد ذلك حول المرآة أو ماء البئر الذي يعكس وجوه الناظرين ، (وكلهم قباح) طائفة من الحكايات ، ويحظى الموضوع بتقليد في المشرق كبير .

يظهر الموضوع أيضًا في مخطوط نزهة الأدباء في صيغة مخالفة بعض الشيء ، مستندين في ذلك إلى ترجمة رينيه باسيه الذي لا يشير إلى مصدر آخر يكون فيه الموضوع، ولا حتى كتاب الحصري الذي أفاد منه كثيرا بلا ريب في كتابه «ألف حكاية وحكاية» . وها هي حكاية باسيه :

يحكى أن رجلا رأى مرآة ملقاة ، وكان شنيع الخلقة ، فأبصر وجهه فيها هكذا ، فطرحها ، قائلا :

ما طرحك أصحابك من خير .

أذكر هنا بشيء من الفضول صدى واعيا لقرطبي نظر في المرآة التي رفعت أمامه، فقال :

إني نظـــرت إلى المـــرآة إذ رفعـــت

فـأنكـــرت مقلتـاي كـــل مـــا رأتـــا

رأيـــت فيهـــا شـــييخا لـــست أعرفـــه

وكنـــت أعـــرف فيهـــا قبـــل ذاك فتـــى .

خارج أيكة سانتاكروث ، ورمانثي كيبيدو ، وبعيدا عن حكاية البرتغالي فرانسسكو روديجيث لوبو لم أعثر على الحكاية لدى كتاب كلاسيكيين آخرين ، لكني هنـاك روايـة حديثة صيغت شعرا ، يمكن أن يكون أصلها إحدى هذه الروايات الثلاث ، وهـي في المتحف الفكاهي لمانويل دل بالاثيو ، ولويس ريبيرا ، تقول الأبيات :

في مرآة لاورا

نظرت دونيا مونيكا

حين رأت قبحها الشنيع

تعجبت في صوت صحله الغيظ :

ما أردأ المرايا

التي تستخدمها بنات اليوم!!